نهر البارد: المُخيَّم ومَثَانيه(*)

نيكولا بويغ(**)

باحث فرنسي مهتم في تنظيم المجتمعات الحضرية في الوطن العربي.

ترجمة: منير السعيداني(***)

أستاذ علم الاجتماع، جامعة تونس المنار.

في نهر البارد، شمالي لبنان، يبدو التاريخ استئنافاً أبدياً. نُصب المخيّم سنة ١٩٤٩ من قِبل رابطة جمعيات الصليب الأحمر الدولي لاستقبال اللاجئين الآتين من شمال فلسطين، وسنة ٢٠٠٧ انهدم كلّياً، وتضرّرت ضرراً شديداً تَوْسيعاتُه التي عُرفت بتسمية «المخيّم الجديد». منذ بداية المواجهات، تمّ نقل السكّان بُغية تجنيبهم القصف المكثّف والمعارك العنيفة التي تَوَاجَهَ فيها الجيشُ اللبنانيّ مع عناصر «فتح الإسلام»، مجموعة الإسلاميين الدّوليين الذين كانوا قد تسللوا إلى المخيّم حديثاً. استمرت المعركة لأكثر من ثلاثة أشهر، من ٢٠ أيار/مايو إلى ٢ أيلول/سبتمبر، لتنتهي بالقضاء على معظم عناصر مجموعة «فتح الإسلام» وتشتّت النّاجين منهم هرباً. وسرعان ما بدأت عائلاتٌ في العودة إلى المناطق الأقل تضرّراً من المخيّم الجديد مُقيمةً في شقق تمّ تجديدها ومُحوّلة المخازن والمستودعات إلى مساكن. حينها شُيّدت بسرعة ثلاث جزائر من البنايات مستعجلة البناء، فيما كان المخيّم القديم يستعيد ساكنته بإيقاع إعادة بنائه وَئيدةِ البُطْء بداية من تسليم القسط الأوّل من المساكن (من جملة تسعة أقساط مبرمجة) خلال شهر نيسان/أبريل ٢٠١١.

لا يتّبع مخطّط إعادة البناء التقسيمَ القديمَ بحيث لم يتوافق تنضيده توافقاً تاماً مع شكله القديم. إلى هذا الانزياح الأوّل ينضاف آخر ناتج من وجود شتات كثيف استوطن أوروبا الشمالية رئيسياً. يشكّل حضور/غياب هؤلاء الفلسطينيين المتناثرين ومختلف الصلات

(*) في الأصل، نُشرَت هذه الدراسة في: Nicolas Puig, «Nahr al-Bared (Liban): Le Camp et ses doubles,» dans: *Un Monde de camps*, Sous la direction de Michel Agier; Avec la contribution de Clara Lecadet (Paris: La Decouverte, 2014) (422 pages).

(**) البريد الإلكتروني: nicolas.puig@free.fr.

(***) البريد الإلكتروني: mounisai@yahoo.fr.

التي يعقدونها مع السكان، فضلاً عن المخاييل العابرة للقوميات التي يثيرونها لدى من بقوا هناك، مخيّماً «خارج الأسوار» ليست أهمية أثره في إعادة هيْكلة الفضاء الاجتماعي المشترك من دون قيمة. ليست إعادةُ استكشاف نهر البارد الجديد المنبثق من الأنقاض مُجرّد متابعةٍ لتطوّر الأشغال وللاستقرار التدريجي للسكان والترتيبات التي تتولّد عن ذلك فحسب، بل هي تستوجب، مثل ما يفعل اللاجئون، تنضيدَ الإجابات غير المكتملة التي تشكل كلّ واحدة منها نسخة من المخيم، المخطط له والمتخيل والمتصوّر والمنقول من مكانه، وكذا ملاحظة تعديلاته الإشكالية.

صورة لمخيم نهر البارد مُلتَقطة من قمر اصطناعي قبل هدمه.
يتمايز المخيم القديم ذو البناءات الكثيفة بوضوح عن التوسيعات

(**صورة منقولة من** Google Earth)

على هذا النّحو، يشبه وصف المخيم عملية تجميع عسيرة على طريق تحديد تخومه المجالية والاجتماعية والثقافية. يوجد **أوّل الأجزاء** التي تتطلب التجميع على بُعد عشرة كيلومترات إلى الجنوب، في مخيّم البداوي إلى حيث تم نقل أغلبيةٍ من السكان أواخر أيار/مايو وبداية حزيران/يونيو ٢٠٠٧، وحيث يجعل التعايش «شخصيّة» كل مخيّم صريحةَ الملامح. **ثاني الأجزاء** يكوّنه تاريخ المكان؛ تاريخ وضعه وتحديد موقعه، كما كوّنه، بعد هدمه، استمرار حياة تشكيله الأوّل على الهيئة التي تتبدى في خطاب الخسران الذي صِيغ خلال حملة تجميع للمعلومات العقارية في صفوف السكان أقيمت لتكون قاعدةً لإعادة البناء.

آخر الأجزاء تشكّله إعادة استثمار فضاء المخيّم من أجل إقامة ممارسات مادية ورمزية بالتوازي مع تحيينٍ للعلاقات مع الشتات. عند هذا نلاحظ أنواعاً من المنطق طاردة وجاذبة تحدّد للمخيم مجاله الترابي في الوقت ذاته الذي تجعله مُلحقاً بما هو خارج عنه، بعيداً، في البلدان الأوروبية رئيسياً.

صيف ٢٠٠٧: «أغنية عاطفية حزينة لنهر البارد»

«صوتي الآن متعب كثيراً، وقد تأخّرت بالنسبة إلى القرص المدمج (CD). لي ستّ أغنيات عن نهر البارد. عليّ أن أزور الطبيب وأتمنى أن أكون بخير. أحبّ الموسيقى كثيراً، وأنذر لها نفسي. ما أحبّذه هو الموسيقى العاطفية.

- ولكن ما كتبتَه عن نهر البارد ليس أغنية عاطفية.

- حزينة... هي أغنية عاطفية حزينة.»

(عبد الله، مهجّر إلى نهر البارد، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧)

«ليس بمستطاعي، في هذه اللحظة، أن أقول أيّن يوجد جاري الذي كان يحاذينا. عندما هُجّرنا تشتتنا. عندما أرى جاري فكأني رأيت منزلي. أشتاق إليه كثيراً. لا أدري أين هو، لبنان شاسع وقد تم تشتيت ٤٥٠٠٠ شخص. أقول أين يوجد جاري، أين هو صديقي؟ تُهت عن أفضل أصدقائي، لا أراهم. بإمكاني أن أراهم وأن أحادثهم على الإنترنت ونحن في بلد واحد. كنت أحادث أصدقائي على الإنترنت عندما كنت في البارد، أصدقائي الموجودين في أوروبا أو الذين سافروا. أمّا الآن فأنا أحادث أصدقائي في لبنان وكأننا في بلدان مختلفة».

(وسام، منقول إلى البداوي، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧)

مخيّمان في واحد

في أغنية أُلّفت تحيةً «لمخيّمه» المهدّم، يَعِد عبد الله، الفنان الفلسطيني الشاب، بعدم هجرانه أبداً. بعد أن تم نقله صحبة ما يقارب العشرة آلاف من السكان إلى مخيّم البداوي المجاور، ظل طوال الصيف يستمع إلى طلقات القصف الصمّاء المنتظمة، مسويّة البنايات بالأرض، واحدة تلو الأخرى كما ظل يرى، كلّما حلّ الليل، التماع الانفجارات. إلى هذا المشهد الباعث على اليأس كانت تنضاف مصاعب الحياة اليومية التي كانت ظروف الإقامة الهشة تزيد من عسرها. كانت التوترات التي تسببت فيها أدفاق المنقولين إلى مخيم البداوي خطيرة، وبينما كانت النفوس تجيش بسبب تصاعد غلاء الإيجارات، والاستغلال الاقتصادي لسكان البارد من جهة واستخدام المدارس لإقامة المهجرين من جهة أخرى، لاحظ عبد الله، من الآن فصاعداً، وجود «مخيّمين في واحد».

حالة الهدم في نهر البارد (باللون الأسود العمارات التي حدّدت للهدم).

(تصوير الأنروا، ولجنة إعادة بناء نهر البارد، ٢٠٠٨).

عن الأزمة انجرّ تعايشٌ غير مسبوق بين ساكنَتَيّ مخيّمَيْن أظهر إلى العلن وجود «عقليات مخيّم» متمايزة تماماً. فلئن كان المخيّمان قد نسجا علاقاتٍ وطيدةً زواجية وعائلية بفضل تجاورهما وبسبب كون قسم من لاجئي البداوي الذي تم بعثه سنة ١٩٥٥ أصيلي البارد، فإن كلّ واحد منهما طوّر وعيه المجالي الخاص من خلال التعلق بفضائه مؤكّداً خصوصيته ومميزاته. تمثل التلوينات اللّسانية التي يمكن إدراكها انطلاقاً من اللهجة ومن معاجم الألفاظ مَيَاسِم انتماء إلى أحد المخيمين. يُرَدّد استخدام «إِسَّه» (الآن) الجاري في البارد عوضاً من «هلّأ»، الأكثر استخداماً في البداوي، إلى شكل مستمر البقاء من الرّيفية وإلى علامة على «الفلسطينية». في مقابل ذلك أسبغ قُرْبُ طرابلس صبغة حضريّة على البداوي الأكثر «مدينية». يبدو أن البارد الأبعد عن مدينة الشمال الكبرى من المخيم الآخر قد تلقى تأثيراً لبنانياً أقلّ من الثاني، ويبدو أنّه ظلّ أكثر «فلسطينية» وأكثر محافظة، ولكن «أليس حَسَناً أن يحرص المرء على الحفاظ على تقاليده؟» مثلما يلحّ مدافعاً أحمد أصيل البارد خلال المناقشة. ومع ذلك كانت المدينةُ هي البارد. «في البداية لم يكن شيء، خيامٌ وطبيعةٌ مناوئةٌ، جعلنا منها مدينة» كما ورد في تعليق مها التي حلّت بلبنان عندما كانت في الرابعة من عمرها. يُبْرِزُ الخطاب حول المخيّم الذّي كَانَ حَضَرِيَّتَهُ المخصوصةَ، حضريّةَ المدينة

التجاريّة المنفتحة على بيئاتها المحيطة ولكن، مِثْلاً بمثْلٍ، تغار على تقاليدها متمركزة على الحفاظ على طبيعتها الفلسطينية.

تشهد محلات شارع السّوقِ الرئيسِ العديدةُ والتكاثفُ المتراكم للنّاس وللسيّارات على حيويّة النشاط الاقتصادي الدائر حول الحُليّ الفاخر وتنوّع الخدمات وتجارة القرب في حين يكون عليك، في البداوي، «أن تمشي حتى تجد ما ترغب فيه». يؤكّد سكّان البارد الذين كرّروا زياراتهم إلى مخيّم البداوي على امتداد أكثر من سنة ويواصل البعض منهم فعل ذلك، على الاختلافات القائمة بين مناخات المخيمين. البارد كان أكبر وأكثر تبادلاً مع سكان القرى اللبنانية المحيطة الذين كانوا يأتونه ليشتروا بأسعار مخفّضة سلعاً زهيدة الثمن كان البعض منها مستورداً تهريباً من سورية القريبة. صَنعت هذه الخصيصةُ ثراءَ هذا المخيم الذي كان مركزاً مهمّاً للاقتصاد الفلسطيني في لبنان، ويبدو أنها صنعت كذلك غيْرةً وعلى الأخص لدى تجار المنطقة اللبنانيين، وهي الغيرة التي تفسّر، على قدر ما تزعم الإشاعات، اندلاع العنف والتدمير. كان البارد يجتذب كذلك جمعاً من المشترين مجهولي الهوية في حين يمثل البداوي مخيّماً أكثر تواضعاً وقد يكون أفضل تأطيراً من قبل المنظمات السياسية، حيث أمكن طرد عناصر ميليشيا «فتح الإسلام» في حين تمكّنوا من الاستقرار في البارد. يُزَاوِجُ خطابُ سكّان البارد عن مدينتهم بين عنصريْن هما الألفة مع الحي المصغّر، والطريق والزقاق ومع من كانوا فيها يعيشون، من الأقارب على الأغلب، من جهة والصبغة الحضريّة التي تسم مدينة تهيكلها المبادلات التجارية من جهة ثانية. تلقّى البداوي الأكثر قرباً من المدينة اللبنانية أثراً من ذلك من جهة عوائده الأكثر ليبرالية.

بفعل ذلك، ظل نهر البارد، في صيف ٢٠٠٧ تلك، على قيد الحياة خارج حدوده محافظاً على وجوده في ذاكرة سكانه، وفي اندفاعهم المكافح من أجل إعادة بناء تكون أسرع ما أمكن. تطفو قَسَمات حدوده الاجتماعية عندما يظهر المجتمع الذي كان يؤويه على سطح الكاشف الذي مثّله النّقل إلى البداوي. في ما يتجاوز حجمه المجالي، هو يعمل كما لو كان مرجعاً حاملاً لخصال متعارضة بعض الشيء (الحضريّة والمُتَحَفيّةُ الحافظةُ «للتّقاليد الفلسطينيّة») يمكن للسكان تعبئتها ومن باب أولى وأحرى في مثل هذه الأوقات المضطربة.

النكبة الثانية

ولّد القَدَر المأسوي الذي حلّ بالمخيم إنتاجات فنية ومناضلة منذ الأيام الأولى «للكارثة». داخل المخيّم، للإنتاج الثقافي الفلسطيني مهمّةُ دعْم هويّاتي وسياسيّ حتّى إذا ما كانت كل الموافقات تجاه الإلزام الأخلاقي بالدفاع عن القضيةً، «الإلزام الأخلاقي بالتذكر» متوافرة (Picaudou, 2006: 27). بهذه الطريقة يتلبّس الملحّنون وكاتبو كلمات الأغاني في مختلف الفرق الموسيقية السياسية والوطنية بالمأساةِ بحيث يتمكّنون من ترجمتها كلماتٍ وألحاناً.

منذ ما قبل نهاية المعارك كان سي دي حِرَفِيّ الصّنع يجول في البداوي مَوْسُوماً بعنوان معتدل: «أغانٍ لنهر البارد»، حاوياً خمس أغنيات وُظّبتْ وسجّلت في استوديويّ التّسجيل المحلّيَّيْن الموجودَين في المخيم. تُعدّد واحدةٌ من المقطوعات أسماء المدنيين الذين قَضَوْا في المعارك حيث يمكّن الإعلانُ الضحيّةَ من الترقّي إلى مصاف شهيد. يرافق هذا الذكرَ المسموعَ إلصاقُ صُوَر على جدران المخيّم من قِبَل المنظّمات السيّاسية والعائلات نفسها أحياناً. الأغنية الأولى في الأسطوانة لمجموعة «عشاق الأقصى» وهي تبدأ بسرد قصّة طفل يطلب من المستمع أن يُصْغِيَ لقصّة شعبه رافعاً صوته على أنغام لحن يعزفه النّاي «... شُو أَصْعَبْ مِنْ جَرْحَةِ النَّكْبَه غِيرْ إِلِّي بِالْبَارِدْ صَارْ».

نبرة الأغاني والشعارات والخطاب عامّة (كلمات السكان) تحيل صراحةً على بلاغة القضيّة الفلسطينية وعلى النّكبة، وهي اللفظة التي تسمّى تأسيس دولة إسرائيل وهجرة ما يقارب ٨٠٠٠٠٠ فلسطيني من بينهم ١٠٠٠٠٠ استقروا في لبنان سنة ١٩٤٨. تُنقَلُ البلاغةُ إلى «الكارثة» الحاليّة الّتي تبدو وكأنّها تكرارٌ للتاريخ، على بُعد أكثر من ستين سنة. حقّ العودة الذي ينطبق منذ ١٩٤٨ على أرْض الأجداد في فلسطين (القرار ١٩٤ لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة) يتمّ مَدّهُ ليشمل العودة إلى نهر البارد. على هذا المعنى تطالب الشعارات بتطبيق «حق العودة إلى البارد» فيما يشير آخرون إلى أن ستين سنة مضت والنكبة لا تزال تستمر على خلفيةٍ من صور للمخيم المهدّم وللمسجد الأقصى أرض الإسلام المقدّسة والرمز القومي الفلسطيني والعربي. بالطريقة نفسها، يتمّ التنديد بـ «نكبة البارد» أو «النكبة الثانية» من قبل المنظمات السياسية. على مرّ الأوقات صارت كلمة «نكبة» لفظة بَدَلاً تُسَمَّى بها كل المآسي التي تنهال باستمرار على رؤوس الفلسطينيين.

ملصق العودة إلى نهر البارد

(مخيم البداوي، ٢٠٠٨).

مؤخّراً، أشار مسؤولٌ جمعيّاتي في نهر البارد إلى «نكبة ثالثة» حلّت بمتساكني مخيّمه الّذين كان عليْهم أن يجابهوا الدّفق الجماعي لفلسطينيي سورية وهو ما لا يمكن إلا أن يتسبب في مصاعب جمّة في حين لا يزال يفصل إعادة بناء المخيم عن نهايتها زمنٌ طويل.

تَرَاكُبُ المعاجم هذا يخلق نوْعاً من دَغْمِ الزّمنيات بيْن أُفُق عودةٍ تبدو في الصّيغة السياسيّة والأخلاقيّة وكأنّها من باب العدالة الَواجبة من جهة، وأُطُر الحياة اليومية المليئة بدلالات التعلّق بالمخيّم من جهة ثانية. تَهَبُ هذه الأطر الماديّة والرمزيّة والمواقعيّة للمخيّم تاريخيّته الخاصة، زَمَناً وُضِعَ على شكل حياة حضرية تختفي مَثَلُها كَمَثَل الحياة في فلسطين، مُفْسِحَة في المجال لصيغة جديدة من الاستقرار/إعادة الاستقرار. على أنّ خطاب الخُسران ومُعَاودته تستدعي على الفور تعاليق حول قدرة المجتمع الفلسطيني على امتصاص الصدمات، واستعداده للحفاظ على ذاته على قيْد الحياة بعد افتقاده أرضه ومداومته الصّمود في وجه الأوضاع المأسويّة.

على ضفاف النّهر البارد

من المخيّم إلى المدينة

سنة ١٩٤٩، نُصب المخيّم على قطعة مساحتها كيلومتر مربع واحد على شاطئ البحر بين قرية عبده اللبنانيّة ومصبّ «نهر البارد» الذي ينساب من الجبال اللبنانية حيث ينبع على عُلُوٍّ يفوق ١٥٠٠ متر. أوتي بلاجئين كان قد تمّ إيواؤهم في ظروف هشة قبل ذلك بسنة في سهل البقاع غير بعيد من بحيرة القرعون ليستقروا في المخيّم مستفيدين من ظروف مناخية صحية. مَثَلُهم كَمَثَل غالبية الفلسطينيين في لبنان كانوا أصيلي مناطق متاخمة وتحديداً من محافظات الجليل - عكا - حيفا وكان قسم صغير منهم متكوناً من برجوازيي القدس الحضريين ومن سكان يافا وصلوا إلى بيروت بالباخرة. اتّخذ العمل الإنساني الدّولي أشكالاً مؤسّساتية عدّة قبل أن يستقر في أيار/مايو من سنة ١٩٥٠ ببعث منتظم مخصوص يتكفّل باللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأوسط، هو الوكالة الأممية لغوث اللاجئين وتشغيلهم (الأونروا UNRWA).

في البداية، تم إيواء اللاجئين في خيام، ومن خلال سيرورة معمّمة (Latif, 2008) وبعد عشر سنوات من نَصْبِه، تصلّب المخيّم وعَوّضت الخيامَ دورٌ من الخشب ومنازلُ من اللّبن عليها سقوف من الزنك. رُوَيْداً رويداً، تراكمت الرواسب المكوّنة للمخيم فتكاثف، وتنوّع النسيج التجاري. ولئن ظل سقف الزنك من علامات وضعية اللاجئين الواسمة فقد تناقص وجوده في المشهد تدريجيّاً. يفضّل التشكيلي الفلسطيني أصيل صبرا عبد الرحمن القطناني هذه المادة في أعماله. يبدع تركيبات تمثّل المخيّم بهدف إخراجه من حدوده، مكوّناً إيّاها

من مساكن صغيرة هشّة يشكّلها من مواد يلتقطها، تحيط بها خيالات أطفال يلعبون يُقَوّرها في المعدن المموج. يتوجّب التأكيد أن هذا التمثيل لا يخصّ بالضرورة سكّان المخيّم الذين يمكن أن يَرَوْا فيه نظرةً مُبخِسةً للمواقع التي فيها يَحْيَون. قامت مدينة كثيفة، صُنعت من عمارات ذات طوابق عديدة ووضعت على امتداد شبكة معقدة من الأزقة الضيقة في حين تشق المخيم طريق واحدة ذات اتساع. لا تزال التسميات التي أطلقت زمن التركيز الأوّل سارية إلى الآن وهي تعكس منطق التجميع الذي كان على أساس الأصل الجغرافي. على هذا النّحو يحمل كل حي اسم المحلّة الفلسطينية التي منها انحدر اللاجئون الذين يحتلونها. تتكفل هذه التسميات التي تُتَنَاقل بعناية بتسجيل العائلات في سلسلة نسبية فلسطينية. من بين أهمها يمكن أن نذكر سعسع، جهولا، صفصاف (إقليم صفد)، البروا، الدامون، الغبسية (إقليم عكا)، أو صفورية (الناصرة). خلال السنوات ١٩٧٠، لم تعد هذه التسميات تعكس حقيقة إعمار السّاكنة للأحياء بفعل تعدد الزيجات بين أبناء ساكنة محلات فلسطينية مختلفة. في تلك الأثناء، ولئن كان حجم الظاهرة قد ازداد فعلاً خلال السنوات ١٩٨٠، خرجت الأجيال الجديدة من المخيم البالغ أقصى اكتظاظه، ليقيموا في جواره المباشر ونمت توسيعات نحو الغرب والجنوب رئيسياً. طوال الحرب، استقبل المخيّم منقولين من المخيّمات والمُجَمّعات الأخرى، عناصر من فتح طردت من بيروت وبه أقيم حي «المهاجرين» لاستقبال المهجّرين الوافدين من تلّ الزّعتر، الذي تمّ هَدْمُهُ سنة ١٩٧٦.

ترتكز تسميات المخيّم الجديد على خصوصيّة المواقع كَافَّةً عن أن تكون على أساسِ أَصْلِ من استقرّوا فيه خلال المَنْفَى بحيْث تحيل تسميةُ شارع السكّة على سكة الحديد القديمة، وتكون الكورنيش تسميةً للمنطقة المحاذية للبحر، أو النهر تسميةً للحيّ الملاصق لمجرى النهر. سنة ٢٠٠٧، وقبل اندلاع المعارك، كان المخيّم إذاً مدينة نشطة، و«بابَ عكّار التجاري» تلك المنطقة التي تحيط بنهر البارد. كان المجموع، بما في ذلك «المخيم الجديد» يؤوي ٣٠٠٠٠ نسمة، فلسطينيين في الغالب مع لبنانيين أيضاً، وكانت الصلات مع البلديات المحيطة متينة بما في ذلك ما انْتَسَجَ من خلال التحالفات مثلما يشهد على ذلك تقليدٌ قديمٌ من التّزاوج بين نهر البارد وقرية المحمرة المجاورة (*Middle East Report*, 2012: 11).

رسْمُ المخيّم الّذي كَانَ على الخريطة

انتهت المعركة التي دامت أكثر قليلاً من ثلاثة أشهر بمخيّم من الأنقاض. خشي السكان بدايةً ألّا تتمّ إعادة بناء المخيّم، وهم يعلمون أن اثنيْ عشر مخيّماً فحسب من بين الستة عشر التي انتصبت في لبنان ظلّت قائمة، حيث تمّ إجلاء السكّان من واحد منها خلال السنوات ١٩٦٠ وهُدِم ثلاثة خلال الحرب. على أن مبدأ إصلاح سريع على المكان نفسه سرعان ما اكتُسب، وعندها خيضت مناقشات حول إجراءات إعادة البناء هذه بين الأونروا ومنظمة التحرير الفلسطينية والجيش اللبناني وشركة للأشغال العمومية. بَرْمَجَ مخطّطُ إعادة البناء

«شبكةً من الطّرقات المتعامدة وعمارات ذات علوٍّ شاهقٍ في قطيعة تامّة مع النّسيج العُضْوِيّ الذي كان للمخيّم الأصليّ (Grisel et Michelon, 2010: 31-34)، ولا يستجيب في شيء لرغبات السكان التي يمكن تلخيصها في نقاط ثلاثة هي الحفاظ على مبدأ وحدات السكن العائلية (بحيث تؤوي العمارات على العموم أجيالاً متعددة من العائلة نفسها)، واستعادة النسيج الاجتماعي الذي كان قبل الهدم، والجيرة منه على الخصوص، وتحسين ظروف العيش (Grisel et Michelon, 2010: 33).

ولكن مسألة إعادة بناء المخيّم ظلت معلّقة على وضع مخطط يأخذ بنظر الاعتبار وضع ما قبل الهدم، والحال أنه لا يوجد أي تعداد نَسَقِيّ للعقار، ولا أيّ إحصاء للشقق المشغولة ولمختلف العمارات. عندها تكونت مجموعة من المهندسين المعماريين والمختصين الحضريين والمتطوّعين الفلسطينيين والدوليين بمساعدة من الأونروا لوضع مخطط يستدمج المعلومات الخاصة بإحصاء السكان هي لجنة نهر البارد للعمل المدني والدراسات (اختصاراً اللجنة الأهلية NBRC). كانت كل عائلة تُدْعَى لوصف عمارتها ومسكنها، ويدعى شاغلو مختلف الغرف إلى تعيين مساحاتها بحيث يمكن أن يُقترح تخطيطُ إعادةِ بناءٍ يستعيد ما كان قبلُ موجوداً ولكن مع إدخال تهييئات ضرورية، وعلى الأخصّ تلك الّتي طلبها الجيش اللبناني، ومع تحسين نوعية الفضاء المسكون. ولكن تبيّن أنّ إجابة المخيم التي تمّ الحصول عليها بهذه الطريقة غيرُ قابلة للاستخدام قاعدةً لوضع مخطّط إعادة بناءٍ بالنّظر إلى تدنّي موثوقية المعطيات، حيث صرّح سكانٌ بمساحات أكبر وآخرون بمساحات أصغر ممّا كان في الأصل بين أيديهم (Halkort, 2013)، ويمكن رد فشل هذه العملية كذلك إلى التعارضات المتضاربة التي وقعت فيها اللجنة والتي يعود جزء لا يستهان به منها إلى نزاعات السلطة في ما بين أعضاء مجموعة النشطاء الحركيين والفصائل الفلسطينية (International Crisis Group, 2012).

انتهى أمر مخطّط المخيّم إلى أن رُسِم من قِبَل وحدة من اللجنة الأهلية (وحدة تصميم) اشترك فيها أعضاء من «ل ن ب ع م د» الّتي صارت تشمل أعضاء من اللجان الشعبية الفلسطينية. يتّبع المخطط الذي حاز القبول شكل المخيّم القديم مختلفاً عنه في آنٍ اختلافاً بيّناً في ما يهمّ شكل الفضاءات، بحيث انتظم حول «مجمّعاتِ سكنٍ تجمع عمارات متعدّدة تحيط بساحةٍ شبه عمومية».

«المخيم باقٍ على قيد الحياة» (عودة إلى البارد)

«حتى بإعادة البناء التي تمت، ظل النسيج الاجتماعي باقياً، ولم يتم فصل الناس، فلم يجد من كان في الأسفل نفسه في الأعلى، وعاد كلٌّ إلى حيث كان قبل أزمة نهر البارد. (...). لم يتغيّر شيء، لم يهجّر أيٌّ كانَ، وذاك ما كان يرغب الناس فيه».

(عبد، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢)

مرحباً بكم في سعسع

تحيةً لتسليم أوّل دُفعة من العمارات خلال شهر نيسان/أبريل ٢٠١١، في الموقع الذي كان فيه حي سعسع، نَصَبَت اللجنة الأهلية لوحةً تفسّر ما قامت به وتُخْبِر عن تقدّم الأشغال الجارية قِطَاعاً فقطاعاً. أضافت يدٌ مجهولة بقلمٍ ذي خطّ سَمِيكٍ «مرحباً بكم في سعسع». كانت هذه الصّيغة الوَدُودَة مرفوقةً بثانيةٍ تحتها مُوجّهة للزّائر «مرحباً بكم في نهر البارد». وُضِعَ هذا التذكيرُ المصغّر بالتسمية بما يناسب تأكيد غَمْر منطق الإدارة بمنطق السكّان بحيث يَتَوَازَى نَسَقَا التّسمية: الأهليُّ والإداريُّ؛ في وجودهما. قسّمت اللجنة الأهلية المخيم (القديم والجديد) إلى قطاعات تمّ تعيينها بحروف من الألفباء اللاتينية، فكانت القطاعات A، B، C، وهكذا دواليك، ومن ثمّ إلى «حزماتٍ» إعادةِ بناءٍ عددُها تسعةٌ (تعدادها من صفر إلى ثمانية)، تناسب كلّ واحدة منها مجموعةً منفصلة من المساكن. يستخدم السكان التسميات القديمة لتعيين أجزاء المخيّم المعاد بناؤها حديثاً، وبذا يستعيدون استمرار زمن تتهدّده الحرب والهدم. ولكنّ ذلك لا يجعلهم يتجاهلون لغة التخطيط التي عليهم أن يتقنوها في علاقتهم مع اللجنة الأهلية (عدد هام من مستخدميها من أصيلي المخيّم).

رسْمُ غرافيتي على أحد جدران المخيّم الجديد. يمكن أن نقرأ «مخيّم ما مات»، «راب»، «هيب ـ هوب»، «تمرد» وهو الاسم المستعار لمغني راب من نهر البارد.

(تصوير: نيكولا بويغ).

احتفظ السكان بالبنية العائلية التي كانت قبل الهدم تقريباً. يتقاسم أعضاء العائلة الواحدة عمارة فيَحتلّ كل جيل طابقاً مثلما كان عليه الحال قبل هدم المخيّم. قابلت الارتياحَ العارمَ لاستعادة مسكن خاص (وفي الكثير من الحالات للخروج من الإيواء عسير الظروف

في أكواخ الطوارئ) خيبةُ أملٍ مرّةٌ جرّاء ضيق مساحتها. وبالفعل، كان على وحدة التصميم التابعة للجنة الأهلية أن تعتبر ما فرضه الجيش من اتساع أدنى للأنهج بحيث يسمح بمرور العربات المصفحة وما رفضته الحكومة اللبنانية من جهتها من إسناد أراض إضافية لتوسيع الحي. على أنّ الحياة سرعان ما استعادت نسقها في العمارات بمجرد شغلها في خضم روائح الدهن الذي لم يجفَّ بعدُ وأطر الأبواب والنوافذ الخشبية. افتُتحت متاجر عطارة على حافة الحديقة وملأ الأطفالُ الفضاءاتِ بألعابهم الصاخبة.

في التوسيعات، منذ صيف ٢٠١٢، تسارع النّشاط الذي استعاد نسقه التدريجي على إيقاع عودة العائلات. تراخت إجراءات المراقبة شديدة الضبط التي كان وضعها الجيش اللبناني إلى حدٍّ حيث أدّت التظاهرات التي انتظمت ضدّ سلوك الجيش وتصرّفه الأمني في المخيّم مثلاً إلى إلغاء الاستظهار بتصريح دخول للمخيم الذي كان إلى حينه إجبارياً بالنسبة إلى الفلسطينيين (لا بالنسبة إلى اللبنانيين). بقي تقدير إجابات السكان عن اقتراحات السكن التي تتضمنها عمارة المبنى معاد البناء وهيئته الحضرية.

ساهمت الاحتفالات التي تواكب الزيجات وكذا الاستعراضات التي تذرع أنهج المخيّم على إيقاع الطبول وصوت القربة، الآلة الموسيقية المعتبرة عنصراً مهماً من التراث الفلسطيني، في استعادة حيوية المكان. تدريجياً، استعادت الآليات الاجتماعية «البين ذاتية» موقعها من خلال إعادة بعث فضاءات التخاطب المشتركة حيث تتبادل مختلف الأخبار والمعلومات. ثُنِّيَ الفضاء بموقع على الإنترنت ومنتدى عليهما تجول كل أنواع المعلومات والمواقف. يَرْدِفُ الموْقع ساحات الاجتماعيّة ويسمح لمَن لم يَعُدْ إلى المخيم بعدُ بمقاسمة حياته ونقاشاته عن بُعدٍ[١]. تندرج الإشاعات في هذه الأنشطة الخطابية

زفّة عرس في نهر البارد ـ بناءات في المخيّم الجديد

(تصوير: نيكولا بويغ، ٢٠١١)

(١) انظر: موقع ومنتدى مخيمي نهر البارد والبداوي الحواري، <http://www.nahrelbared.net/>.

بوصفها أشكالاً مخصوصة من الحجاج، بحيث تُمَفْصِلُ الرّبط بين الوضعيّة المعيشة ومسبّباتها العامّة (السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط وآثارها المباشرة في المحلّي، أو المؤامرات الصهيونية) وتقترح مُعَالجات رمزية (كما كان عندما رَفَضَ أبٌ لبنانيٌّ حضور دفن ابنه الجنديّ بسبب اقترافه السرقة من داخل شقق المخيم). لهذه الإشاعات مَهَمّة دفاعيّة بحيث تُسبغُ المعنى على الوضعيّة وتعزّز الجماعي، وهي بذلك شبيهة بشكل حمائي للسّكن(٢).

مخيّمات خارج الأسوار

تمثل عودة المهاجرين خلال صيف ٢٠٠٩، فصل الزيارات المفضّل، وبعد سنتين من الغياب، مرحلة مهمّة في سيرورة إعادة بعث الحياة في المخيّم. وبالفعل فقد كان حضور فلسطينيِيّ الخارج، وعلى الأخص منهم فلسطينيو اسكندنافيا حيث تمكنوا من الاستقرار نهائياً منذ حرب لبنان، وكأنّه إشارة على عودة قريبة لنوع من الاعتيادية. مخلصين للمخيم الذي يحتفظون فيه بفروع بأكملها من أهلهم، جلبوا معهم جرعات مُغْرِية من بعيدٍ، فيه الحياة أسهل أو على الأقل يُتمتّع فيها بالحقوق المدنية والمواطنية التي حُرم منها اللاجئون جيلاً فجيلاً.

في غَبَش حرارة الصيف، تجمع الحفلاتُ العائليّةُ العديدة (الزفّات، سهرات الشباب، حفلات الزواج) المقيمين الذين عادوا لتوِّهم إلى المخيم الجديد والمهاجرين الذين حلوا آتين من شققهم في العواصم الشمالية. ترسم اللحمة العلائقية التي تصل بين المغتربين وبين أقاربهم الذين ظلوا في المخيم مخيّماً خارج الأسوار. إلى هذا الحدّ أو ذاك، يتمّ الاحتفاظ، على الأخص، بالتضامنات العائلية بين الضفة الشرقية للمتوسط والأقاصي الأوروبية. وقد حلت الأزمة واضعةً على محكّ صَارِمٍ ممارساتِ التعاون المتبادل إذ وَجَد بعض المغربين أنفسهم مجبرين على تمويل تسويغ شقةً حتى يجنبوا أقاربهم المصير المشترك لإقامةٍ عسيرة الظروف في مدرسة. ولكن ذلك لا يمنع أن نفاجأ في الكثير من الحالات في نهر البارد الذي يستعيد الحياة بالعقليّة والطرق التي بها يتصرف المهاجرون. ومن المعلوم أن أوروبا تغيّرك وأن المرء يخسر فيها من ذاته بعضاً، يظل غامض التحديد، ويبهت ألق القابلية الاجتماعية التي يكتسبها من خلال ألفته المديدة مع المخيم. الدليل على ذلك أنّه لا يندر خلال الموسم الصيفي أن نرى آباء يرسلون إلى المخيّم بأبنائهم حاملي جنسيات بلدان متقدمة.

---

(٢) لتعميق نقطة تطوير الروابط الاجتماعية وجولان الإشاعات في نهر البارد، انظر: (Puig, 2012: 245-249).

مقابل ذلك، يتكفل ببعض الشبان متناقصي العدد الآتين من أوروبا بعد رحلة مضنية في أغلب الحالات أفرادٌ من عائلاتهم حتى تستقر أوضاعهم. تتمّ الهجرة على الأغلب بطرق غير قانونية ولكنها تظل ممكنة بعد الزواج بمغتربة ومن خلال مواصلة الدراسات العليا في بلد متقدم (أستراليا وكندا في معظم الحالات). أنهى وسام رحلته إلى أودنس (Odense) بالدنمارك حيث وجد له خاله ستوديواً في مجمّع سكني مخفّض الإيجار. يقضي أغلب أوقاته على سكايب وفايسبوك. في العديد من الحالات تضطلع الشبكات الاجتماعية بدوْر الحبل السُّرّي الذي يربط المهاجر بالمخيّم.

يوثّق وسام حياته الجديدة، أو على الأقل جوانبها المبهجة و«المُغربة» من خلال وضع العديد من الصور يتّخذ فيها لنفسه هيئة تكون في خلفيتها مشاهد مُخْضَوْضِرَةٌ من حدائق أودنس ومناظر للمدينة التاريخية، وكثيراً ما يظهر نفسه كذلك مغنياً في ستوديو تسجيل. وقد سجّل أغنية تجول الآن على اليوتيوب تحيّة لمخيّمه (الله معك يا بارد). في محادثة له على سكايب مع أصدقاء من المخيّم، يطلب أن يراهم واحداً واحداً حتى يتبادل معهم التّحايا والأخبار مادّاً في اتساع الاجتماعية الّتي تسم المخيّم على الرغم من غيابه. توجّه عدسة كاميرا الواب إلى الشباب المجتمعين بمقهى يقتلون فيه الوقت فيما تمكّنهم بضع خطوات إلى الخارج، وبالقدر الذي تسمح به إشارة الواي الفاي (*Wi-Fi*) دائمة الرّداءة، من أن يُرُوا وسام أحدَ أنهج المخيّم. بالكاد يميّزها خلف ركام وحدات التصوير الرقمي المتراقصة على شاشته.

في انتظار ما هو آتٍ يهتم وسام بوضعيته الإدارية. واعياً بوضعه غير القانوني في الدنمارك ومتخلصاً من كل أمل كاذب في حظوظ قبول مطلب اللجوء إلى السويد الذي أودعه، بدأ البحث عن فتاة «حسنة التربية» يتزوّجها، وهي الطريقة الأكثر تأكيداً للحصول على تقنين وجوده في الدنمارك. بغية العثور على من ستمكّنه من النفاذ أخيراً إلى مواطنة، يتخذ له معبراً من خلال أقاربه الذين ظلوا في المخيّم طالباً منهم المساعدة. ترشده أم صهره أخيراً إلى فتاة يمكنه أن يتعرف إليها تحت الرقابة الحازمة لأبويْها. يمكّنه هذا التركيب «ثلاثي الأضلع» من توسيع دائرة علاقاته في بلد إقامته وذلك بالاستعانة بأقاربه في المخيم. مهما كانت نهاية القصّة، في ما يهم الخطوبة والزواج على الأقلّ، يُبرز هذا المرور بالمخيّم بوصفه مورداً للحصول على موطئ قدم في الدنمارك الطرقَ الّتي بها يتمدّد المخيم في البعيد الأوروبيّ.

المخيّم المستعاد

في البارد، تأزف ساعة استعادة العادي تجاه حوادث التاريخ. يعيد اللاجئون رسم مسارهم ومسار مخيّمهم في سلسلةٍ نسبيّة مُضَاعفة، فلسطينية ومحلّية. يتمظهر ذلك البحث

في بلاغات خطاب السّاكنة، بدْءاً من استعادات التسمية، التي يكتسبُ بعدُها الرّمزي بذلك قيمته المُضاعفة، في الإنتاج الثقافي والتلفّظ السياسي، وبذا تكون لعبة معقّدة من عمليّات الغمْر والتّزامن والإقصاء في ما بيْن أنظمةٍ متشظّية. على هذا النحو، بتدرّج، يستعيد المخيم «مكانه»، ويصير، بوصفه بياناً مجالياً وشكلاً حضرياً، إلى توليد تاريخيته الخاصة، ويتحول إلى موقع ممارسات وتمثلات، فضاء للتعلّق ومرجعيةً، وأخيراً، مورداً بالنسبة إلى من يظل بعيداً منه.

المراجع

Grisel, Julien et Benjamin Michelon (2010). «Nahr-El-Bared (Liban): Reconstruction participative.» *Urbanisme*: no. 374, September-October, <http://urbamet.documentation.developpement-durable.gouv.fr/vuedocpdf?id=Urbamet-0296367&print=true>.

Halkort, Monika (2013). «Expressive Sovereignty, On Information Rights and Self Determination in Nahr el Bared, A Palestinian Refugee Camp in Lebanon.» Rapport pour Issam Fares Institute (American University of Beirut).

International Crisis Group (2012). «Lebanon's Palestinian Dilemma: The Struggle over Nahr al-Bared.» *Middle East Report*: no. 117, 1 March.

Latif, Nadia (2008). «Space, Power and Identity in a Palestinian Refugee Camp.» in: Kamel Doraï et Nicolas Puig (dirs.). «Palestiniens en /hors camps: Formes sociales, pratiques des interstices.» (September), <http://www.reseau-terra.eu/article800.html>.

Middle East Repport (2012). «Lebanon's Palestinian Dilemma: The Struggle over Nahr Al-Bared.» *Middle East Repport* (International Crisis Group): no. 117, 1 March, <http://www.crisisgroup.org/~/media/files/middle%20east%20north%20africa/iraq%20syria%20lebanon/lebanon/117-lebanons-palestinian-dilemma-the-struggle-over-nahr-al-bared.pdf>.

Picaudou, Nadine (2006). «Préambule: Discours de mémoire: Formes, sens, usages.» dans: Nadine Picaudou (dir.). *Territoires palestiniens de mémoire*. Paris: Karthala. (Hommes et Sociétés)

Puig, Nicolas (2012). «Villes Intimes, expériences urbaines des réfugiés palestiniens au Liban.» dans: Nicolas Puig et Kamel Doraï (dir.). *L'Urbanité des marges: Migrants et réfugiés dans les villes du Proche-Orient*. Paris: Téraèdre.

المراجع الموسيقية

«Aghani Nahr El Bared, Mish Maoul, Abdullah Wehbi.» Youtube (2007), <http://www.youtube.com >.

«Allah Ma3ak Ya Bared, Abdullah Wehbi.» Youtube (2012), <http://www.youtube.com/watch?v=QDPm5x2qccU>.

MCTAMARRUD (MC Rebelle) (2008). «Elli Hâmel hawiyé Zar'é, Rasu 3ali.» <http://www.youtube.com>.